

دلائل الإعجاز

وعُشْرًا عُشْرًا وآيةً آيةً فلم يجدوا في الجميع كلمةً يندُبوا بها مكانُها ولفظةً يُنكرُ شأنُها أو يُرى أنَّ غيَرها أُلحُ هناك أو أشبهُ أو أخرى وأُخِلق . بل وجدوا اتِّساقاً بَهرَ العُقُولِ وأعجزَ الجمهورَ ونظاماً والتئاماً وإتقاناً وإحكاماً لم يدعُ في نفسِ بليغٍ منهم - ولو حُكَّ - بيا فوخه السَّماء - موضعَ طمعٍ حتى خرستِ الألسنُ عن أن تدَّعي وتقولَ وخَلَدتِ القُرُوم فلم تملكُ أن تَصولَ .

نعم فإذا كان هو الذي يذكرُ في جوابِ السَّائلِ فبنا أن ننظرَ : أيُّ أشبهُ بالفتى في عقله ودينه وأزَّ يدُ له في علمه ويقينه أأنَّ يُقَلِّدَ في ذلك ويحفظَ متنَ الدليلِ وظاهرَ لفظه ولا يبحثُ عن تفسيرِ المزايا والخصائص ما هي ومن أينَ كَثُرَتِ الكثرةُ العظيمةُ واتَّسعتِ الاتساعُ المجاوزُ لوسعِ الخلقِ وطاقةِ البشرِ وكيفَ يكونُ أن تظهرَ في ألفاظٍ محصورةٍ وكلمٍ معدودةٍ معلومة بأن يُؤتى ببعضها في إثرِ بعضٍ لطائفُ لا يحصرُها العددُ ولا يَنتهي بها الأمدُ أم أن يبحثَ عن ذلك كله ويستقصيَ النظرَ في جميعه ويتتبعه شئناً فشيئاً ويستقصيه باباً باباً حتى يعرفَ كلاً منه بِشاهدِهِ ودليلِهِ ويعلمه بتفسيرهِ وتأويلهِ ويوثقَ بِتصوُّرِهِ وتمثيلهِ ولا يكونَ كمن قيلَ فيه - الطويل - :

(يَقُولُونَ أَقْوالاً ولا يَعْلَمُونَهَا ... ولو قِيلَ : هاتُوا حَقَّ قُوالِمْ لَمْ يَحَقُّوا) .
قد قطعتُ عُذَرَ المتهاونِ ودَللتُ على ما أضاعَ من حظِّه وهديتُه لرشدِهِ وصحَّ أنَّ لا غنى بالعاقلِ عن معرفةِ هذه الأُمُورِ والوقوفِ عليها والإحاطةِ بها وأنَّ الجهةَ التي منها يقفُ والسببَ الذي به يعرفُ استقراءُ كلامِ العربِ وتتبعُ أشعارِهِم والنظرُ فيها .
وإذ قد ثبتَ ذلك فينبغي لنا أن نبتدئَ في بيانِ ما أردنا بيانَه ونأخذَ في شرحهِ والكشفِ عنه